

تقديم

أحمد بهاء الدين شعبان

هذا كتاب مهم، بل بالغ الأهمية!

وهو واحدٌ من أكثر المراجع، التي توفرت على قراءتها في العقود الأخيرة، إماماً بالقضية التي يتناولها بالتشريح والتحليل، وهو كتابٌ لا يصلح في تناوله أن يُقرأ قراءة المُستخف الكسول، وإنما يحتاج . لكي نتابعه، ونحيط بأعماقه وأبعاده، ونلّم بأحداثه ووقائعه . أن نقرأه قراءة اليقظ المُتنبّه، وأن نطالعه مُطالعة الدارس المتعمق، فهو كتابٌ يُقرأ لكي يفهم، لا لكي يُسَلَّى، ولِيُجيب على العديد من التساؤلات المُعلّقة، المطروحة، لا لكي يُغلق بعد تصفحه، وينتهي أمره !.

كما أنه، ككل الكتب المهمة في التاريخ، والتي شكّلت الوعي الإنساني، يُطرح على القارئ، العديد من الأسئلة الجديدة، وربما المقلقة، قدر ما يُجيب على غيرها، ويكسر «التابوهات» السياسية المحظورة، ويُفاجئهُ برؤى قد تصدمه، وخاصةً بالنسبة لأمثالنا، من الذين تابعوا، عن بُعد، ويتابعون، ما حدث، ويحدث، داخل هذه المنطقة المؤثرة أشد التأثير، في أحوالنا، وفي البيئة المحيطة، والكون: روسيا، في علاقتها بأوطاننا، وإقليمنا، وعالمنا، امثالاً لشروط الظروف الجيوسياسية الحاكمة، وهو الموضوع محلّ الدرس، ومحط البحث هنا.

ولا ترجع أهمية هذا الكتاب إلى حجمه الكبير، البالغ نحو سبعمائة وخمسين صفحة، بما يقترب مجموع كلماته من ربع مليون كلمة، وحسب، وإنما، وأساساً، تعود إلى جودة ما يطرحه من رؤى، وجديّة ما يستعرضه من أفكار، وإلى عمق ما يقدمه من معلومات، مستقاة من مراجع رفيعة المستوى، ومن الاطلاع المكثف على وثائق نادرة، وبالركون إلى معارف مُتَشعّبة، مبنية على الخبرة العملية المباشرة، منحت الكاتب دراية عميقة بموضوع البحث، ودُرية لازمة بمتاهاته ومسالكه، فضلاً عن مشاركة عن كُتُب، في رؤية أو متابعة، أو صناعة العديد من وقائعه، وهو أمرٌ بالغ الضرورة للقارئ العربي، الذي لا يمتلك مسارات موثوقة للمعرفة بهذا الشأن، بل أن بعضهم يتلقى معلوماته عن دقائقها وتطوراتها، من مصادرٍ فيها غير الموضوعي أو المغرض !.

و "أليكسي فاسيليف" صاحب هذا السفر المميز، الذي اختار له عنواناً شاملاً: "من لينين إلى بوتين: روسيا في الشرق الأوسط والأدنى"، ليس غريباً لا عن الموضوع، ولا عن الموقع، ولا عن القضية، ولا عن أبطالها والفاعلين الرئيسيين فيها.

فهو مستشرق كبير، ومفكرٌ سياسى رفيع المقام، مُتبحرٌ في الشؤون المصرية والسعودية، وعالمٌ في أكاديمية العلوم الروسية، عمل كرئيس فخري لمعهد الدراسات الأفريقية، ورئيس لمركز الدراسات الحضارية والإقليمية بأكاديمية العلوم الروسية، وهو عضوٌ بـ "مجلس الأمن الروسى"، ورئيسٌ لتحرير مجلة رصينة متخصصة، هي مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، وعمل لفترة كمبعوث خاص لرئيس الدولة الروسية في المنطقة، وله عدد كبير من المؤلفات التي غطت أوضاعها، وواكبت تطوراتها بالبحث والتحليل، منها: "مصر والمصريون"، و النزاع في الشرق الأوسط، و«تاريخ المملكة العربية السعودية»، و«روسيا في الشرق الأوسط والأدنى، و «من سياسة رُسل السلام إلى البرجماتية»، و «الملك فيصل: شخصيته وعصره و إيمانه»، وغيرها.

توفر صفحات هذا السفر الجامع، الذي بين أيدينا، استعراضاً بانورامياً شديداً للثراء، يُقدم للقارئ صورة إجمالية عن عوامل، وملامح، وتراجيديا صعود وهبوط إمبراطورية كبرى، هي «الإتحاد السوفيتي»، الذي كان ييسط نفوذه المادى والمعنوى على مساحة شاسعة من الأرض، ويهيمن أيديولوجياً على فكر ووعى مئات عديدة من ملايين البشر، ويلعب دوراً لا يمكن تجاهله، في تقرير شئون العالم، ويُقارع القوة العظمى الأخرى المنافسة: الولايات المتحدة الأمريكية، ويزاحمها على مواقع الصدارة... ثم مالبت، للناظرين من خارجه، أن اندثر، أو، حسب التعبير الماركسي الشهير، «إضمحل»، حتى التلاشى، في واحدة من الأحداث اللافتة الكبرى في التاريخ البشرى، والتي ستظل محل بحث وتدقيق العلماء والمعنيين، إلى فترات طويلة قادمة.

ولأن تقديم قراءة تفصيلية لهذا الكتاب القيم، بما احتوى من أفكار، ومآطرحه مؤلفه من رؤى ومواقف، يبدو أمراً مستحيلاً في حدود المساحة المحدودة لمقدمة كتاب، وأمرٌ غير مضمون النجاح، فسأكتفى هنا بتقديم «إضاءة» دالة على مجموعة من النقاط المركزية، التي وجدت من قراءة هذا العمل وجوب ألا تمر مرور الكرام، وضرورة الوقوف عندها، لطرحة ثلاثة ملاحظات عليها، اعتقاداً منى بأهميتها، ومحوريتها، في العمل كله.



الملاحظة الأولى، أن الكاتب ينطلق من نظرة ناقدة متحفظة، أو لنقل معترضة رافضة، للتجربة الشيوعية، التي مرت بها روسيا، منذ انتصار الثورة الاشتراكية الكبرى، (أكتوبر 1917)، وحتى قُبِضَ لها الزوال مع بزوغ سنوات العقد الأخير من القرن الماضي، فهو يراها - عدا فترة محدودة هي سنوات حكم الرئيس الأسبق «نيكيتا خروشوف» - سنوات جذب، ومعاناة، وتخبُّط، واستنزاف، وتبديد لطاقت وثروات الشعب الروسى، التي أهدرت إهداراً، (خاصةً في ظل «المرحلة الستالينية»، وفترات الجمود التي وسمت عصر «بريجينيف»)، في محاولة، كان محكوم عليها بالفشل، تبغى تحقيق برامج مثالية، وإنفاذ تصورات «رسالية»، تحوى، كما يرى المؤلف، «كَمّاً ضخماً من الأفكار العدمية الرافضة للواقع»، وتسعى إلى نشر شعاراتها «الراديكالية المتطرفة التي تخلب العقول والقلوب، وتُسكّر الأبواب»، ومنها «السلام للشعوب»، و «الأرض للفلاحين»، و «الخبز للجوعى»، و «المصانع للعمال»، جازماً أن الممارسات العملية على أرض الواقع «لم تشهد احترام أى من تلك البنود، أو الالتزام بها»، «منذ حمل البلاشفة إلى الشعوب المُعذبة والغاضبة فكرة رسالة النجاة والإنقاذ، وقدموا أنفسهم كونهم مملكة الرب على الأرض، والتي مُنحت إسماً جديداً غير معروف وغامضاً، وهو «الشيوعية»، ... وأصبحت تلك الموجة الشاملة ومتعددة الجوانب، والتي تعمل تحت شعار الفكرة والرسالة عنصراً أساسياً مكوناً في النظام الجديد، جنباً إلى جنب بجوار آلة القمع والاضطهاد»، (ص: 28).

ومن موقع المراقب الخارجى المهتم، ومن منظور مختلف قليلاً عن منظور الكاتب، وإن كان شديد الاحترام لتاريخه الكبير، وجهده، وعمقه، وإخلاصه، ومتفهماً لدواعيه، (ف «ليس من رأى كمن سمع»، أو قرأ، يُحَيَّلُ إلى، أن إصدار هذا الحكم النهائى الباتر، وإطلاقه على وجه التعميم، وتلخيص نتاج نحو ثلاثة أرباع القرن من تاريخ روسيا وشعبها، باعتباره باطل وقبض ريح، ولا يعدو مستنقعاً من الوهم والقهر، وبما ينزع عن هذه الحقبة المهمة من تاريخ روسيا والعالم، كل فضيلة أو إنجاز، ربما لا يضع في الاعتبار الظروف الموضوعية الصعبة الحاكمة، وقتئذ، والتي ساهمت في إعطاء هذا الانطباع، ومنها حداثة التجربة، وغياب أى مرجعية عملية، أو مسطرةٌ مجربة للقياس والتعديل، نظراً لكونها التجربة الأولى للإنسانية في هذا المضمار: السير باتجاه الاشتراكية والشيوعية!.

ولعلى أرى، أيضاً، أن جانباً مما وقعت فيه هذه التجربة من أخطاء، أو حتى خطايا، وبعضها فادحٌ لا معنى لتبريره، مرجعه بالأساس، تردى الأوضاع العامة لروسيا،

الفقيرة والمتخلفة، آنذاك، والتي قُيِّضَ لها أن تكون مؤثلاً لأول تجربة من هذا النوع، فضلاً عن الظروف المعقدة، التي دُفعت إليها روسيا، دفعاً، بُعيد وصول البلاشفة إلى السلطة، من القوى المضادة في الداخل وجيوش التدخل الإمبريالية من الخارج، التي تنادت لوأد التجربة الجديدة في المهدي بالعدوان السافر. إذ ما كانت القوى الرأسمالية المعادية لهذا المشروع، والتي تدرك مضامينه ومخاطره، تقبل بأن ترى منافسها أو خصيمها، أو بالأدق، عدوها ونقيضها، يرمى في هذه البقعة المهمة من العالم، وينشر دعوته في المعمورة كلها، وبما يهدد مصالحها ونهبها، ثم تنتظر عليه حتى تقوى شوكته، ويصعب مواجهته!

وعلى الرغم من أن البروفيسور «أليكسي»، يتحفظ في كتابه، وباستمرار، على تغليب الدوافع «الأيديولوجية» على المواقف «الموضوعية»، فليسمح لي أن أبدى خشيتي أن هذا الموقف كان موقفاً «أيديولوجياً»، من هذه التجربة الكبيرة، بنجاحاتها وإخفاقاتها، «العظيمة المجد والأخطاء»، على حد تعبير الشاعر «محمد مهدي الجواهري»، والتي يكاد لا يرى فيها إيجابية تُذكر، مع أنها، وبشهادة حتى ألد أعدائها، قد طوّرت الأوضاع الاقتصادية والمعاشية لعشرات الملايين من المواطنين الروس الفقراء، ونشرت المعرفة والفن والثقافة، وحدثت القيم والمفاهيم، وففزت بالتطور العلمي والتكنولوجي إلى أجواز الفضاء، ونقلت روسيا من وهاد التخلف إلى تخوم التقدم، وخلقت واقعاً عالمياً جديداً، وقدمت خدمةً جليلاً للإنسانية بأن ساعدت شعوباً عديدة، ومنها شعوبنا، على أن ترى ضوء النهار، وأن تشق طريقها إلى المستقبل.

ولعلنا، في عالمنا العربي، لازلنا مدينين للحكم السوفيتي السابق، بأن سارع، بمجرد الوصول إلى السلطة، إلى كشف تفاصيل اتفاقية «سايكس - بيكو» السريّة، التي تم بموجبها، تقسيم واقتسام أراضي الإمبراطورية العثمانية المتداعية، تركة «الرجل المريض»، عام 1916، فمزقت أوطاننا إرباً!

ويدين الكاتب الاتحاد السوفيتي لأنه «من أجل الترويج لتفسير التعاون مع العرب، اختار، (قادته يعني)، أن يتجاهلوا حقيقة أن أساس الصراع العربي الإسرائيلي في كونه صراع بين قوميتين وبين شعبين، الإسرائيلي والفلسطيني، على الأرض، (ص: 90)، وهو فهم مناف للمنطق، وللواقع، فلا يمكن للدين أن يُنشئ قومية، وتجميع أشتاتاً يهودية من شتى الأصقاع، ومن مئات الدول والجنسيات والأعراق، واصطناع دولة لها، وفرضها بقوة القهر، استناداً إلى مساندة الدول الاستعمارية والإمبريالية، لحماية مصالحها في بلادنا، وطردها



أصحاب الأرض الأصليين، الشعب الفلسطيني، لا يرتب حقاً، ولا يفرض مشروعية، مهما كان الأمر، والانتصار لآخر أشكال الاستعمار، الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، والادعاء بأنه يملك الحق في فرض إرادته، لا يؤسس استقراراً، أو يحقق أمناً!

ويحق لنا، قبل، وبعد الاطلاع على فصول هذا الكتاب، أن نسأل سؤالاً افتراضياً، في هذا السياق: وماذا لو لم تقم ثورة أكتوبر، بكل إشكالاتها، وظلت روسيا الكبيرة رهينة الاستبداد القيصري، الذى سأم شعبها. لقرون. العذاب، وأورثه السقم والبؤس؟!.

أكان حاله سيكون أفضل؟!، وهل كان وضع العالم، سيكون أكثر أمناً واستقراراً، وقد رأينا ماحدث بعد هيمنة «القطبية» الأحادية، والانفراد الأمريكى بشؤون العالم؟!.

لا أعتقد!

أما **الملحوظة الثانية** فتتعلق بمحورية موقع مصر من الخريطة الاستراتيجية للمصالح الروسية، يستوى الأمر في ذلك خلال عقود التجربة الشيوعية، أو بعد سقوطها!.

فمنذ أن تم تدشين العلاقات المصرية السوفيتية، عام ١٩٤٣، ورغم العداء المتأصل للشيوعية، لدى البرجوازية المصرية المرتبطة بالقصر والاحتلال، فإن الكتاب يرصد مشاعر التفهم لدى جموع شعبنا: «لم يكن المصريون يعتبرون الاتحاد السوفيتى عدواً، كان العدو بالنسبة لهم هو المحتل، وكان المنافس العربى لهم هو العراق، التى حكمها نظامٌ ملكى، ارتبط بعلاقات وثيقة مع بريطانيا»، (ص: ٥٧).

إن مصر «هى الدولة الأكثر نفوذاً، والأضخم في عدد السكّان، وبوابة العبور إلى العالم العربى»، (ص: ٥٦). وقد توثقت العلاقة بين الطرفين، على أرضية المنفعة المتبادلة: «فقد سعى جمال عبد الناصر» إلى بناء دولة قوية وتسليح الجيش المصرى»، وراهن في البداية على الولايات المتحدة والغرب في تحقيق هذا المسعى، لكنهم رفضوا تحقيق هذا الطموح المشروع لدولة فتية وزعيم بازغ، ووضعوا شروطاً للموافقة على تسليح مصر: انضمامها إلى التحالفات العسكرية، وقبولها استقبال بعثة عسكرية أمريكية.

رُفضت هذه الشروط، وكان أن اتجه «عبد الناصر» صوب الاتحاد السوفيتى، الذى ساعده على توفير احتياجاته، ودعم تنفيذ المشروع القومى الكبير: «السد العالى»، وبنى لمصر قاعدة صناعية، لازالت، حتى اليوم، وبالرغم من كل محاولات الهدم و «الخصخصة»، أساساً من أسس الدولة الراكزة.

غير أن واحدة من المآثر الكبرى للاتحاد السوفيتي، التي تركت في الوجدان المصري أثراً عميقاً، كان الموقف الصلب للاتحاد السوفيتي، إزاء العدوان الثلاثي، البريطاني - الفرنسي - الإسرائيلي، على مصر، عام ١٩٥٦، والذي هدد فيه الاتحاد السوفيتي باعتزامه استخدام القوة «لصد المعتدين وإعادة السلام إلى الشرق»، وقد «كان هذا الإنذار النووي الأول والوحيد من نوعه، في عصر ما بعد القنبلة الذرية»، (ص: ٦٠)، وبصرف النظر عما إذا كان هذا «الإنذار النووي خدعة تم التخطيط لها»، (ص: ٦٤)، أم كان تهديداً جدياً، فالمؤكد أنه كان أحد العناصر الحاسمة، إن لم يكن العنصر الحاسم، في ردع العدوان، وهو أمر ثمنه الشعب المصري، واحتفظ له بمكانة سامية في وجدانه، وغنى له وتغنى به، بكلمات الشاعر الكبير «صلاح جاهين»:

«النجوم الحمراء سهرانة في موسكو، زى قلب الموسكوفيين الودود، يا حبايبي
ياما كان نفسى أبوسكو، وانتو واقفين جنبنا، زى الأسود... مهرجانكم للسلام
وللصداقة، ابتدا وانتم معانا ف بورسعيد، والسلاح الروسى فى إيدين الرفاقة، كل
طلقة فيها كل الأناشيد . مهرجانكم ، ابتدا يوم المظاهرة : «إرفعوا عن مصر يد
المعتدين»، مصر حرة . . وح تفضل مصر حرة ، يا حبايبي ، كنتوا إنذار بولجانين»! .

وقد تصاعدت حميمية العلاقات بين مصر "عبد الناصر" والاتحاد السوفيتي، رغم "المطبات" والمصاعب، وخصوصاً بعدما اتجهت مصر إلى تبني "الاشتراكية العربية"، وصار الاتحاد السوفيتي "يعتمد على مصر في صياغة سياسته لمنطقة الشرق الوسط"، (ص: ٧٩)، حتى أن علاقتهما لم تتأثر بمطاردة الشيوعيين المصريين، وتعذيبهم، بل وباستشهاد العديدين منهم تحت وطأة التعذيب في المعتقلات، وبلغت ذروة غير مسبوقه وجدت أبلغ تعبير لها في استقبال شعب مصر لزيارة الرئيس "خروشوف"، في التاسع من مايو ١٩٦٤، فقد "استقبلت مصر الضيف كما لم تستقبله دولة في العالم، تجمعت أمواج من البشر، وكان المشهد مهيباً بحيث لا يمكن للضيف أن يتجاهله. كان استقبالاً صادقاً من القلب"، (ص: ٧٩).

ولم تتأثر وتيرة هذه العلاقة، حتى بعد رحيل "خروشوف"، وتولى "ليونيد بريجنيف" أعتة الحكم، حيث "ظل التعاون مع مصر هو عماد السياسة السوفيتية في منطقة الشرق الأوسط"، (ص: ٨٧)، ومعروف طبعاً باقى التفاصيل: دور مصر في تكوين وقيادة حركة عدم الانحياز، ومقاومة التكتلات والأحلاف العسكرية، ودعم حركات التحرر، والبناء الاقتصادي للدولة، ودعم القضية الفلسطينية... ومساندة الاتحاد السوفيتي لها، وتحمل الدور الرئيسى في إعادة بناء القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، على الرغم من طرد الرئيس "أنور السادات" للخبراء



السوفيت، وارتمائهم في أحضان الولايات المتحدة، بزعم أن "٩٩٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا"، في مسلكٍ جراحٍ للكبرياء السوفيتي!

والأخطر كان الدور الذي لعبه "السادات" في دعم من أسماؤهم بـ "المجاهدين الأفغان"، بالتعاون مع المملكة السعودية وباكستان، وبإشراف المخابرات المركزية الأمريكية، ومدعمهم بالمقاتلين، والمال، والسلاح، وهو ما ساعد على مضاعفة النزيف السوفيتي، وكان أحد عوامل "الانهيار الكبير" بعد ذلك، على نحو ما يشرح الكاتب بلماحية وعمق، في الفصل السابع: "جراح لا تندمل".

وقد ارتبكت العلاقة بين مصر والاتحاد السوفيتي في أحرى عهده، بعدما تعثرت خطواته، وتضاعف هذا الارتباك بعد انهياره، وصعود "ميخائيل جورباتشوف" إلى موقع رئاسة الدولة بين عامي ١٩٨٥ و١٩٩١، وتنصيب أول رئيس للاتحاد الروسي، "بوريس يلتسين"، الذي امتدت ولايته من عام ١٩٩١ إلى عام ١٩٩٩، قبل أن تعود لاستعادة زخمها، بعد استقرار الأمور، في عهد الرئيسين، الروسي "فلاديمير بوتين"، والمصري عبد الفتاح السيسي، في أعقاب عواصف التغييرات السياسية التي ضربت المنطقة عام ٢٠١١، (والتي واكبها المؤلف بالتحليل والمتابعة المدققة)، وإزاحة جماعة "الإخوان" من السلطة في ٣٠ يونيو ٢٠١٣، وتصاعد وتيرة الحرب ضد الإرهاب، وربما يكون في توقيع عقد مشروع المفاعل النووي الذي سينشأ بمنطقة "الضبعة"، أكبر شاهد على هذا المسار.

وليس بعيداً عن هذا النهج الموقف السوفيتي، ثم الروسي من بعد، في علاقته بالدول العربية ودول المنطقة: اليمن الجنوبي، المملكة العربية السعودية، العراق، إيران، تركيا، وأفغانستان، وغيرهم: لقد تراوحت السياسة السوفيتية مع هذه البلدان، بين دواعي "الأيدولوجيا"، ومقتضيات "البراجماتية"، لم يعد للمثالية والفكر "الرسالي" من مرتكز، بعد أن رست المركب الروسي في النهاية على شاطئ "المصلحة"، ذلك الشاطئ الذي وصفه الكاتب ببراعة: "المهم هنا هو معرفة ماتحاجه روسيا من هناك (أي من دول المنطقة). والإجابة في منتهى البساطة. نحتاج إلى تبادل تجاري، وتصدير لأسلحتنا، ومشاريع اقتصادية مشتركة، والسياحة، وجذب للاستثمارات من الإمارات إلى السوق الروسية. لا مكان للأيدولوجيا هنا!" (ص: ٢٢).

أما الملحوظة الثالثة، فتماس مع ما أسماه المؤلف: «سنوات التسعينيات اللعينة»، في الفصل الحادى عشر من الكتاب.

ومصدر لعنة هذه السنوات، هو أنها السنوات التى واكبت احميار الاتحاد السوفيتى، أو «الكارثة الجيوسياسية الأضخم بعد الحرب العالمية الثانية، حيث انقسمت الدولة السوفيتية السابقة العظمى، وظهرت مكانها روسيا و14 دولة جديدة»، (ص: 244).

وتعبيرات «يفغينى برىماكوف»، وهو من هو فى المعرفة والسياسة والحكم، فى العهدين: «كانت حقبة التسعينيات سنوات فشل روسى. هذا أمر واضح وجلي تماماً. فخلال التسعينيات فقدنا الكثير فى المجال الاقتصادى والعلمى، بل أكثر مما فقدنا أثناء الحرب العالمية الثالثة. شهدت تلك الفترة ميلاد هياكل حكم أوليغاركية. كان من الضرورى التحلى فقط عن سلبيات الحقبة السوفيتية، والاستفادة بإيجابيات تلك الفترة. أما ما حدث فقد قمنا بتدمير كل شىء تماماً»، (ص: 428).

وواكب عملية «التدمير الذاتى» التى حدثت أن تراجعت أهمية وحضور الشرق الأوسط، حتى أصبح «خارج نطاق اهتماماتنا بالكامل. كانت أولوياتنا هى علاقتنا بالولايات المتحدة الأمريكية. وكان من الواضح أن الشرق الأوسط لم يستطع جذب اهتمام روسيا إليه، فمن ناحية لم تكن هناك حرب باردة، ومن ناحية أخرى كات روسيا تعاني من عدم استقرار، وكان زعماء روسيا حينها لا يعتقدون أن بلادهم يجب أن تلعب دور الدولة العظمى»، (ص: 428).

كانت الدولة العظمى، كما يصف إ. س. إيفانوف: «تعيش تحولات داخلية هائلة. أتحدث هنا عن أزمة داخلية وتحولات فوضوية. ولم يكن من الممكن ألا ينعكس ذلك على السياسة الخارجية»، (ص: 429).

كانت روسيا الجديدة تعاني عثرات الولادة، وتنهض مُجدداً، من عذابات روحها وصراعات الوجدان، مثل العنقاء، من تحت الرماد!.

ودورها المحتوم، لم يكن بمستطاع غيرها أن ينهض بأعبائه. حتى لو كان هذا الدور غير ذى «طبيعة رسالية». فليكن، إذ أنه فى غياب هذا الدور، كما يقول «ألكسندر بلوك»: «تتحرك الغيوم المرتجفة جيئةً وذهاباً، ويغرق الغروب فى الدماء». ويصبح العالم أشد ظلمة، وأكثر وحشة،



وأقل إشراقاً ووعداً بالأمل!.

والأكثر أن روسيا نفسها لا تستطيع أن تتخلى عن هذا الدور. حتى لو أرادت، وأياً كان وضعها، وأياً كان لون الراية التي ترفرف في سمائها: حمراء أم زرقاء!.

هذه قراءة أولية لكتاب عمدة، يستحق أن يكون صدوره، في الثقافة المصرية، حدث هذا العام!.

وأخيراً يقتضى الواجب أن أزجي الشكر الوفير للمترجم القدير، د. «محمد نصر الجبالي»، الذى منحنا ترجمةً بديعة، سلسةً وبلغَةً، لهذا الكتاب المهم، فجعلت من الاطلاع على صفحاته رحلةً مُشوّقة، ومن الصبر على قراءة سطره الوفيرة، متعةً مُيسّرة، ومعرفةً مُقدّرة، ودراسةً مُعتبرة.

كما يوجب الإنصاف أن أحيي جهة النشر التى تحمست وقامت على عبء ترجمة، وإعداد، وإصدار هذا السفر القيّم: «دارنشر أبناء روسيا»، بالتعاون مع «المؤسسة المصرية الروسية للثقافة والعلوم»، بإدارة الدكتور «حسين الشافعى»، التى قدّمت للقارئ المصرى والعربى والروسى، والأجنبى، نخبَةً مختارةً من عيون الفكر والفن، والأدب والسياسة، والتاريخ والآثار، مترجمةً إلى العربية، والروسية، والإنجليزية، خدمةً مشكورة لتفاعل مطلوب وضرورى، بين ثقافتين إنسانيتين غنيتين، قدمتا للحضارة الإنسانية الكثير، ولا زالتا قادرتان على الإبداع والعطاء.

أحمد بلال الربيعي

القاهرة في: 22 يناير 2018

مقدمة المترجم

يعتبر كتاب "من لينين إلى بوتين. روسيا في الشرق الأوسط والأدنى" ثمرة تاريخ طويل امتد لنصف قرن قضاه المؤلف في دراسة منطقتي الشرق الأوسط والأدنى، وفي إجراء تقييم موضوعي وبعيد عن الأحكام المسبقة للأهداف والأساليب والوسائل التي انتهجتها موسكو في سياستها الخارجية، وما حققته من إنجازات حقيقية، وكذا لحظات الفشل والخطأ في الحسابات التي ارتكبتها في تلك المنطقة من "العالم الثالث"، شديدة الأهمية بالنسبة لروسيا سواء السوفيتية أو ما بعدها. وتلك هي المرة الأولى في دراسات علم التأريخ التي يتم فيها تناول عملية اتخاذ القرارات داخل الكرملين تجاه منطقة الشرق الأوسط بالبحث والدراسة والتحليل. ويحتوي الكتاب على معلومات تنشر لأول مره حول أزمة السويس 1956م والحروب العربية الإسرائيلية عامي 1967م و1973م وحرب الخليج 1991م والتدخل السوفيتي في أفغانستان وسياسة موسكو تجاه إسرائيل. كما يتناول الكاتب بالتحليل الخطوات البرجماتية التي تنتهجها القيادة الجديدة في روسيا في إطار مكافحه الإرهاب وتدخل قوات التحالف في كل من العراق وأفغانستان وكذا تجاه "الربيع العربي" والأزمة السورية. ويثبت الكاتب بالأدلة أنه لم يعد هناك مكان لدور رسول السلام في السياسة الروسية، كما أن المكون البراجماتي أيضا في تلك السياسة ليس بلا حدود.

ويتناول كتاب "من لينين الى بوتين - روسيا في بلدان الشرق الأوسط والأدنى" استعراضا للتطور التاريخي للعلاقات بين الاتحاد السوفيتي ومن بعده روسيا والعالم العربي وتركيا وإيران وأفغانستان منذ عشرينيات القرن الماضي وحتى اليوم.

يمثل الكتاب الذي بين أيدينا أهمية كبيرة نظرا لكونه يطرح رؤية جديدة للوضع في الشرق الأوسط والأدنى لم يسبق أن تطرح في الأدبيات العربية. وترجع أهمية الكتاب أيضا إلى السمعة التي يحظى بها مؤلفة المستشرق الكبير ألكسي فاسيليف الأكاديمي الكبير وأفضل المستشرقين الروس دراية بالوضع في المنطقة وتطور العلاقات بين روسيا وبلدان العالمين العربي الإسلامي. كما أن مؤلف الكتاب يعد من المقربين من دوائر صنع القرار في روسيا خلال العقود الخمس الماضية ولذا تتسم أحكامه واستنتاجاته بالكثير من المصداقية.

ويمكن القول بثقة إنه لم يسبق أن تطرق أي من الباحثين من الجانبين الى تتبع التطور التاريخي للعلاقات العربية الروسية عبر قرن من الزمان. ويرجع السبب في ذلك الى أن كثير من الوثائق والأسرار لم يتم الكشف عنها إلا منذ سنوات قليلة.

وقد جاء الكتاب في أكثر من 750 صفحة ولذا فهو يمثل مرجعاً في تاريخ العلاقات بين روسيا والشرق وهو بذلك يمثل أهمية للباحثين في التاريخ والعلوم السياسية الروس والعرب وكذا لدارسي الثقافة الروسية والمهتمين بالشأن الروسي عموماً. وفي الفصل الأول يتحدث الكاتب عن جذور العلاقات بين روسيا وبلدان الشرق الأوسط والأدنى وأسباب اهتمام روسيا بهذا الجزء من العالم. ويتوقف المؤلف عند تطور العلاقات بين الجانبين أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي الفصل الثاني يتتبع الكاتب تطور العلاقات في عصر خروشوف ويكشف عن أسرار جديدة في العلاقات بين الاتحاد السوفيتي ومصر. وفي الفصل الثالث يتناول فاسيليف العلاقات الروسية الشرق أوسطية في عصر بريجنيف في ظل بوادر ائحيار الاتحاد السوفيتي. وفي الفصل الرابع يتوقف المؤلف عند العلاقة بين الاتحاد السوفيتي والحركات والتنظيمات والأحزاب اليسارية والشيوعية في الشرق الأوسط والأدنى.

وفي الفصل الخامس يتناول فاسيليف العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبلدان شبه الجزيرة العربية. وفي الفصل السادس يتتبع الكاتب تطور العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وبلدان الشرق الأوسط والأدنى في فترة ما بعد بريجنيف وحتى تولي جورباتشوف الحكم. وفي الفصل السابع يتوقف المؤلف عند أزمة أفغانستان والتدخل العسكري السوفيتي وهزيمة السوفيت التي عجلت بائحيار الإمبراطورية الشيوعية بالكامل.

وفي الفصل الثامن يتحدث الكاتب فاسيليف عن تطور العلاقات في عصر ميخائيل جورباتشوف وانتهاء عصر الثنائية القطبية وبداية الهيمنة الأمريكية على العالم. وفي الفصل التاسع يتحدث الكاتب عن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي وكل من فلسطين وإسرائيل ودور موسكو في التسوية الشرق أوسطية. وفي الفصل العاشر يتحدث عن غروب شمس الإمبراطورية السوفيتية والدور الذي لعبته في آخر أيامها في أزمة الخليج. ويدور الفصل الحادي عشر عن الضعف الذي أصاب روسيا في التسعينيات، وتأثير ذلك على السياسة الخارجية الروسية في منطقة الشرق الأوسط والأدنى.

وفي الفصل الثاني عشر يتحدث فاسيليف عن بداية عودة روسيا الى المنطقة بعد استعادة قدراتها الاقتصادية ونفوذها السياسي تدريجياً. وفي الفصل الثالث عشر يتناول المؤلف ثورات

الربيع العربي وتعامل موسكو معها ورؤيته الخاصة لمستقبل هذه الثورات. وفي الفصل الرابع عشر يتحدث الكاتب عن الأزمة السورية وجذورها والجهود الروسية المبذولة لحلها. وفي الفصل الخامس عشر يتحدث عن الصراع الدائر حاليا للسيطرة والصراع على النفوذ في المنطقة والتدخل العسكري الروسي في سوريا. وأود هنا أن أشكر الزميلين محمد عمار وعادل صديق على إسهامها بترجمة فصل من فصول الكتاب الخمسة عشر.

ويكشف الكتاب عن الكثير من الأسرار ويتضمن العديد من اللقاءات الصحفية مع صناع قرار في الحكومة ومسؤولين نافذين في الخارجية الروسية.

ويعمل المؤلف عضوا في أكاديمية العلوم الروسية ورئيسا لمعهد آسيا وإفريقيا ومثلا شخصيا لرئيس الروسي لشؤون الشرق الأوسط وإفريقيا. وله العديد من الكتب والمراجع الأصيلة في تاريخ العلاقات بين روسيا والمنطقة.

وفي سبيلنا الى ترجمة الكتاب واجهنا الكثير من الصعوبات التي ترتبط باستخدام المؤلف الكثير من الاختصارات السياسية والاقتصادية القديمة والتي تعود الى 100 عام مضت وكذا التراكيب والتعبيرات اللغوية المعقدة. أضف إلى ذلك أن حجم الكتاب الذي يزيد عن 1000 صفحة وكم المعلومات الغزير واللغة الدبلوماسية التي تقتضي دقة شديدة في النقل كونها تعبر في كثير منها عن مواقف دولية وسياسات حكومية.

والكتاب هام للباحثين في الشأن الروسي والمستشرقين والعاملين في حقل السياسة الدولية والمهتمين بسياسة روسيا في الشرق الأوسط والأدنى.

وفي النهاية أتقدم بالشكر إلى دار نشر "أنباء روسيا" على إصدار هذا الكتاب باللغتين العربية والروسية في آن واحد وفي وقت قياسي حيث يمثل بلا شك إضافة كبيرة إلى المكتبة العربية والروسية ويفتح المجال أمام دراسات أخرى في نفس الموضوع.

وأتمنى أن يحقق الكتاب القصد منه وأن تنال الترجمة إعجاب القارئ الكريم،

أ.د. محمد نصر الدين الجبالي

المقدمة

الجزيرة العربية. ظفار. محافظة تقع في جنوب غرب سلطنة عُمان. نقطة بعيدة في العالم العربي، تقع على حافة قارة أوراسيا، وبعيدا عن موسكو بآلاف الكيلومترات. كوخ في الصحراء مغطى بسعف النخيل. وسجاجيد صغيرة مصنوعة من جلود البقر متناثرة على الأرض. وأجولة الحبوب تتدلى على عارضة خشبية كي تكون بمأمن من الجردان. وبعض اللوازم الأخرى. تدخل علينا امرأة بوجه مكشوف بلا نقاب، وترتدي قرطاً كبيراً في أنفها، وتحمل في يدها العشاء الذي يتكون من أرز مسلوق مع سمك مجفف وشاي. جمع كبير من رجال الجبل المسلحين تكدسوا في المكان حتى أصبح خانقاً. لقد جاءوا ليروا الضيفين اللذين يحملان الجنسية الروسية، السوفيتية. قدمنا، أنا وهو، ضيفين على الجبهة الشعبية لتحرير المنطقة المحتلة بالخليج العربي. وكنا نمثل اللجنة السوفيتية لتضامن بلدان آسيا وأفريقيا. كان أحدنا يعمل صحفياً في صحيفة ”البرافدا“، أما الثاني فهو رجل مخبرات عسكرية. نريد أن نرى ونفهم طبيعة هذه المنظمة وهل هي واقع أم وهم.

و سرعان ما انشغل الحضور عنا حيث اجتذب اهتمامهم، جميعاً، مرافقنا العُماني ذو الأصول الأفريقية، وهو ابن احد العبيد من صلالة. كان يتحدث بشغف وبطلاقة. واختلطت لديه أبيات الشعر بالشعارات السياسية، وكانت كلماته تخلب العقول قبل القلوب. أخذت أستمع باهتمام:

- لقد غرقنا في مستنقع من الظلام والجهل. دفنا وجوهنا في السبخ، وولينا وجوهنا شطر حقولنا أو تجارتنا. يتملكنا الرعب من فقدان أي شيء، حتى ولو كان سجادة صغيرة من جلد البقر. أصبحنا سلعة تباع للرأسماليين. لسنا عبيداً، ولذا فقد ثرنا وانتفضنا، ونحن على أتم الاستعداد للموت.

خرجتُ من الكوخ، فإذا بها ليلة عربية دافئة، رأيتُ فيها النجوم ضخمة ومنخفضة، والقمر مكتملاً. ومقاتلاً شاباً نائماً وهو يحمل سلاحه، محتمياً بظل صخرة.

لا أدري إذا ما كان علي أن افرح أو أحزن لما رأيتُ وسمعت وعرفت. فلم أعد بعد ذاك الشاب الكومسومولي الرومانسي، الذي يسخر نفسه لخدمة تحقيق هدف سيطرة الشيوعية القادمة على العالم. أصبحت هناك الكثير من الأسئلة الحادة والشريرة تورقني: ”لم يتم تقبل الأفكار الشيوعية في أكثر مناطق العالم تخلفاً. هنا أو في لاوس، التي زرتها منذ فترة قريبة، مثلاً؟ أما في الدول المتقدمة كالجزر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية فيتطلب الأمر فرض الواقع بقوة الدبابات؟ ماذا نحتاج منهم هنا أو من الشرق الأوسط والأدنى عموماً؟ النفط؟ كان لدينا وقتها ما يكفيننا ويفيض^(١). الموقع الاقتصادي؟ ليس لدينا ما نتبادلته تجارياً! أن نبني هنا مجتمعاً اشتراكياً، ثم نقوم بدعمهم؟ هل نكسب أم نخسر من انتشار الشيوعية؟ ومن هم ”نحن“؟ الاتحاد السوفيتي؟ روسيا؟ أم قيادات الحزب؟ الطبقة المثقفة الروسية؟ أم العامل في مناجم سيبيريا؟ أو الفلاح في ريزان؟ ربما لا نحتاج، كدولة، إلى أن يخلق طيارون عسكريون أمريكيان وبريطانيون في سماء الجزيرة العربية^(٢)، لأنه سيكون بمقدورهم التحليق بقنبلة نووية حتى يصلوا إلينا والباقي!

عام 1969م. شهد هذا العام اقتراب النفوذ السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط من الوصول لذروته. وقليل من الناس من أدركوا أنه قد حان وقت السقوط وبسرعة من قمة الجبل. لكن في الوقت نفسه كان هناك الكثيرون بين المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط ممن يطرحون التساؤلات التالية: ما الأهداف والوسائل والأساليب التي تنتهجها السياسة السوفيتية في المنطقة؟ وهل تتفق والمصالح الوطنية للاتحاد السوفيتي؟ أم تتناقض معها؟ وما مفهوم مصطلح ”المصلحة الوطنية“؟ ومن يتخذ القرارات وكيف؟ ومن ينفذها، وكيف؟ وكيف ينظر إلينا في الغرب، وفي البلدان العربية، وفي تركيا وإيران وأفغانستان؟

. . . تدفقت المياه عبر الفولجا والنيل، وعبثت الرياح بالكتبان الرملية في الربع الخالي، وأزاحتها عن أماكنها قبل بداية التسعينيات، عندما هم المؤلف بإنجاز كتابه المعنون ”روسيا في الشرق الأوسط والأدنى: من سياسة رسل السلام إلى البراجماتية“. لكن الاتحاد السوفيتي كان قد اختفى في تلك الفترة. وحن الوقت الآن للتحديث بصدق وبصراحة، وأن

١. هكذا بدأ الأمر حينها - المؤلف.

٢. مدينة روسية جنوب موسكو.



يطرح المؤلف من خلال هذا الكتاب ملاحظاته وأفكاره، وما جمع من حقائق، ووثائق، ومقابلات صحفية.

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ثار التساؤل التالي: عن أي سياسة، خارجية أو داخلية، يدور الحديث؟

وكان الاعتراف بروسيا بوصفها وريثاً للاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن، وسرعة استبدال العلم الروسي بالسوفيتي على مباني السفارات السوفيتية السابقة مؤشراً على شيء واحد، ألا وهو أن روسيا التي أصبحت ترتدي عباءة سياسية خاصة بها، ما هي إلا الاتحاد السوفيتي السابق. وهكذا أضحت روسيا الاتحادية، باستثناء البلدان والشعوب التي انفصلت عنها، هي نفسها روسيا التي غيرت شكل كيانها السياسي الخاص. وكانت السياسة الروسية في جوهرها سياسة سوفيتية، سواء على المستوى الإقليمي أو العالمي.

وقد كانت البلدان العربية، وستبقى، جوهر اهتمام المؤلف، إلا أنه لا يمكن تجاهل سياسة الاتحاد السوفيتي تجاه كل من تركيا وإيران وأفغانستان، فبدون ذلك سيبدو تناول لدور ومكانة البلدان العربية غير مكتمل. إلا أن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والبلدان الحدودية، المشار إليها، كانت بالاتساع والمتانة بحيث لم تتوقف عندها كثيراً إلا للاستطرادات والتصنيفات، رغم أن هذا لا ينفي أنها احتلت مساحة أكبر في الجزء الثاني من الكتاب، وعند الحديث عن فترة ما بعد جورباتشوف.

ولا يمكن تناول هذا الموضوع دون التعرف على أعمال الباحثين الغربيين وهم كثير. كما أنه من غير الإنصاف التأكيد على أن أحدهم بمقدوره، وحده، الإلمام بكل ما نشر حول الموضوع. ففي الحقبة السوفيتية تنامي الاهتمام بالشرق الأوسط والأدنى، وصدرت العشرات من الكتب التي تتناول السياسة السوفيتية تجاه المنطقة. وكان الباحثون الغربيون على دراية واسعة بالمصادر المراجع السوفيتية المنشورة. وأحياناً اتسمت أعمالهم وكتاباتهم بكونها أكثر اكتمالاً وصراحة من نظيرتها السوفيتية. فعلى سبيل المثال لم أقرأ لدى أي من الكتاب السوفيت في حينها عن القلق الذي سيطر على قوات الإنزال السوفيتية أثناء الحرب العربية الإسرائيلية في عام 1973م.

إلا أنه، ورغم نقاط قوتهم تلك، كان الباحثون الغربيون، مثلهم مثل نظرائهم السوفيت، يتورطون في أدلة أبحاثهم ودراساتهم، مستفيدين من معادله "اللعبة ذات النتيجة الصفرية".

أي أنه في المناطق التي كان الاتحاد السوفيتي عادة ما يفوز فيها أصبحت الولايات المتحدة تفوز والعكس. ولو تطلب الأمر إخضاع الحقائق لهذه المعادلة. فبعد انهيار الاتحاد السوفيتي انخفض القلق من السياسة الروسية في المنطقة إلى الصفر تقريباً، وما لبث أن تزايد مرة أخرى في بداية القرن الحادي والعشرين. فقد كانت فكرة الأدلجة، وإصباح صفة رسول وداعية السلام والعدل على سياسة الدول، تسيطر على كتابات معظم المؤلفين الغربيين، رغم وجود بعض الإستثناءات التي سنوردها في متن النص.

وفي التسعينيات طرح المؤلف مسألة معقدة وطموحة، أملاً منه في تحقيق نجاح ولو جزئي في حلها، من شأنه أن يسمح بإلقاء الضوء بشكل جديد على السياسة السوفيتية في الشرق الأوسط والأدنى. كان الحديث الدائر عن محاولة إيجاد نقاط التقاء بين مستويات مختلفة للحقيقة، أو على الأقل أخذها بعين الاعتبار دائماً عند القيام بأي تحليل.

يتمثل المستوى الأول في: الوضع السياسي والاجتماعي الحقيقي في الشرق الأوسط والأدنى والذي ساهم في بلورته القائمون على السياسة الخارجية السوفيتية.

أما المستوى الثاني، والذي يخضع لقوانينه الخاصة في الأداء، فيتمثل في الهياكل والمؤسسات السياسية والبيروقراطية، المرتبطة بمفهوم السياسة الخارجية، والتي تتمتع بتنظيم أيديولوجي محدد.

أما الثالث، فيتمثل في الجانب الأقل دراسة، وهو البشر أنفسهم بمعارفهم وجهلهم وذكائهم وغبائهم وشجاعتهم وحبائهم.

وبطبيعة الحال فإن المستوى الرابع من الحقيقة يتمثل في المؤلف نفسه، الذي شاءت الأقدار أن ترتبط حياته بدراسة تلك المنطقة، وأن يكون شاهداً سابقاً على الأحداث، (ومشاركاً فيها في حالات نادرة)، ونقصد هنا موقفه وتسلسل أفكاره وخبرته ومعارفه، وربما أخطاؤه في التقدير أيضاً.

وكحال أي مؤرخ، يعمل المؤلف مع الآثار والشواهد التاريخية في السياسة، أي مع الوثائق والإعلانات والتصريحات والأحاديث والبروتوكولات والاتفاقيات. إلا أن معظم الموجود في الأرشيفات الرئيسية بوزارة الخارجية والجهات التابعة لها كان ممنوعاً على الباحثين. وقد قام المؤلف بعمل لقاءات صحفية مع العديد من رجال الدولة في العهود السابقة بوصفهم أحد



مستويات الحقيقة، وكذا لقاءات مع بعض ممن تبقوا في السلطة، والذين وافقوا على عقد لقاءات مماثلة.

قادني بحثي هذا إلى شقة صغيرة من غرفتين تقع بالقرب من محطة مترو "إيربورت"، حيث يقطن السيد د. ت. شيبيلوف صاحب الستة والثمانين عاماً، والذي سلم التحذير النووي الصاروخي الشهير، في الخامس من نوفمبر عام 1956م، إلى سفراء كل من بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، والذي كانت لديه فرصة تقلد موقع قيادي في الاتحاد السوفيتي، ولكنه فوقها على نفسه. و ربما كان لقائي به آخر اللقاءات الصحفية التي أجراها في حياته.

كما حظيت باستقبال من السيد "إدوارد شيفرنادزه" في القصر الصغير التابع لهيئة السياسة الخارجية، الواقع بشارع يلزاروفا بالقرب من محطة كورسك، والذي رمم للتو. وكان السيد شيفرنادزه قد تقدم باستقالته من منصب وزير خارجية الاتحاد السوفيتي في لحظة دراماتيكية وكان ذلك في نهاية التسعينيات. ثم تولى رئاسة الهيئة، وبعدها استقال من الحزب الشيوعي السوفيتي، وأصبح واحداً من قادة حركة الإصلاح الديمقراطي. وفي عام 1992م عاد إلى جورجيا، وتولى رئاسة مجلس الدولة هناك. وفي نهاية العام اختير رئيساً للمجلس الأعلى الجورجي ثم رئيساً لجورجيا.

كما حصلت على لقاء صحفي مماثل مع السيد أ. زاسوخوف، وهو الشيخ الهرم الذي كان الرئيس الفعلي للجنة السوفيتية لتضامن بلدان آسيا وأفريقيا، ثم سفيرا للاتحاد السوفيتي في سوريا، ثم رئيساً للجنة المجلس الأعلى في الاتحاد السوفيتي للشؤون الدولية، وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، وبعدها، بعدة سنوات، رئيساً لجمهورية أوسيتيا الشمالية، ثم نائباً في مجلس الاتحاد. وقد جرى اللقاء في قصر صغير تابع للجنة التضامن بالقرب من بريتشيستينكو (كروبوينسكايا سابقاً).

كما كان هناك لقاء أيضاً جرى في الميدان القديم مع السيد ب. بونوماريوف المرشح الأسبق، وعضو المكتب السياسي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. ثم ترأس لسنوات عديدة قسم الشؤون الدولية التابع للجنة المركزية. وبعد أن تم إبعاده عن اللجنة، ونظراً لأنه لا يستطيع الابتعاد عن العمل الحزبي ومكتبه الخاص، فقد قضى فترة طويلة في المكان يفرز الأوراق غير الهامة، ويجمع الوثائق التي اعتمد عليها في تأليف كتاب لا يهم أحداً عن تاريخ الحزب الشيوعي. وكان الوحيد بين الضيوف الذي منعتني من استخدام المسجل

أو حتى تدوين الملاحظات أثناء الحوار. وكان الحوار معه الأقل وفرة في المعلومات والمضمون، واضطر المؤلف إلى تدوين ما يتذكره من الحوار بمجرد عودته إلى منزله.

كما كان هناك حوار طويل بين المؤلف وبين مساعد ب. بوناماريوف السيد ر. أوليانوفسك في شقته الواقعة بشارع ألكسي تولستوي (سبيريدونوفكا حالياً). ويعتبر من بين المضطهدين الذين أعيد لهم اعتبارهم في الثلاثينيات، والوحيد الذي استطاع بعد عام 1956م الارتقاء إلى أرفع المناصب، حيث تولى وظيفة مساعد رئيس قسم الشؤون الدولية باللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي. ويتميز من الناحية الإنسانية بكونه شخص لطيف المعشر عاش حياته مؤمناً بتلك الأساطير، وظل يدافع عنها ويدعو إليها، وشارك جزئياً في صناعتها حتى أضحى الآن يراقب، بعيون تعجز عن الفهم، كيف انهار كل ما كان يبدو له في وقت ما راسخاً ثابتاً.

وفي شارع ستانيسلاف، وحيث يقطن ممثلو الصف الأول من النخبة السوفيتية السابقة، التقيت مع السيد ن. يجوريتشيف، الذي كان يشغل في السبعينيات منصب سكرتير اللجنة الفرعية بالحزب الشيوعي السوفيتي في مدينة موسكو، وكان نجمه السياسي في تصاعد، ونظر إليه بوصفه أحد القادة السوفيت المحتملين، والذي خسر في صدامه لاحقاً مع ليونيد بريجنيف. كان الوقت يختلف عن حقبة ستالين الذي كان يتخلص من منافسيه بالقتل. تم التخلص من يجوريتشيف "بالنفي" إلى الدانمارك، ليعمل سفيراً هناك، وعندما تولت إدارة الرئيس جورباتشوف أوفدته سفيراً إلى أفغانستان، في فترة انسحاب القوات السوفيتية منها.

كما وافق على إجراء لقاءات صحفية الكثير من السفراء والعاملين في الحقل الدبلوماسي، والأعضاء السابقين في القسم الدولي باللجنة المركزية بالحزب الشيوعي السوفيتي، وفي إدارة المخابرات العامة، ولجنة الأمن القومي (هيئة الاستخبارات الخارجية حالياً)، والهيئات الاقتصادية الخارجية.

(وسوف يتم استخدام مصطلحي "دبلوماسي" و"موظف بالقسم الدولي باللجنة المركزية" كمترادفين يعادلان المصطلح الصحفي المستخدم الشهير "مصدر معلومات مطلع"). وهناك من لم يعارض نشر اسمه، وهناك من فضل أن يبقى مجهولاً (السبب الرئيس الحرص على الوظيفة، وهم الأكثرية) وهو ما أثر سلباً بالطبع على قيمة الكتاب. ويعلن المؤلف بوضوح قاطع أنه عندما يقتبس مقولات لأشخاص مجهولين فإنه يلتزم، حرفياً، بما



قالوه دون إضافة أو نقصان، وفي بعض الأحيان رأي المؤلف، في هؤلاء، مصادر أكثر ثقة من غيرهم ، الذين صرحوا بأسمائهم علنا.

و قد ساعد على الارتقاء بجودة العمل ما قدمه كل من: الدكتورة إيرينا أبراموفا، والدكتور أوليج ليفين، أثناء فترة دراستيهما للدكتوراة تحت إشرافي. وقد أصبحت الأولى عاملة كبيرة وصاحبة نظريات، وفي عام 2015 م حلت محل المؤلف في منصب مدير معهد أفريقيا بأكاديمية العلوم الروسية. أما الثاني: فقد أصبح دبلوماسياً جاداً، وسافر عام 2015 للعمل وزيراً مفوضاً بالسفارة الروسية في الأردن.

مرَّ بعدها ما يقرب من ربع قرن، وأصبح عنوان الكتاب ”من لينين وحتى بوتين“ في إصداره الجديد، ويغطي مساحة قرن من الزمان تقريبا، بعد ضم فترة ما بعد جورباتشوف. وتطلب الأمر تحديث المادة القديمة، على الرغم من احتفاظ التقديرات الواردة بها بقيمتها ودقتها، فيما مثلت فترة ما بعد جورباتشوف الجزء الثاني من الكتاب، ”حدود البراجماتية“. وقد أتاحت ليّ الزيارات المتواصلة إلى بلدان المنطقة، واللقاءات مع الزملاء الغربيين، أن استشعر جيداً نبض تلك السنوات. ولذا فقد قررت إضافة بعضاً من انطباعاتي في مقدمة الكتاب.

. . . **واشنطن. يناير 2011م.** لقاء بين مجموعة من المستشرقين الروس والعلماء الأمريكيين. القنوات التلفزيونية عامره ببرامج التوك شو عالية المشاهدة حول الثورات العربية. ومراسل صحفي أمريكي يقف في ميدان التحرير، مركز الأحداث العاصفة في مصر، ويتحدث بكلمات صيغت بإتقان، قائلاً: ”المتظاهرون هنا لا يعبرون عن أي مشاعر معادية لأمريكا“. فيما تشاهد في الخلفية لافتة كبيرة، كتب عليها بالعربية ”ارحل. ارحل“ وحينها توصل العلماء الروس إلى النتيجة وقالوا: انتهى الأمر! وتحدثوا عن النمو المتوقع لنفوذ التيارات الإسلامية في العالم العربي. ولم يعلق الزملاء الأمريكيان بشيء وفضلوا الصمت.

. . . **ميدان التحرير. القاهرة. فبراير 2011م.** مبارك يتنحى عن السلطة. والكاتب العربي الشهير، وربما الأفضل في العالم العربي، جمال الغيطاني لا يخفي مشاعره ويقول: ”قبل أسبوع تقريبا من 25 يناير كنت مدعوا في حفل استقبال بالقصر الرئاسي بمناسبة الاحتفال بتوزيع قلادة النيل، وهو أرفع الأوسمة في مصر. شعرت بصدمة عندما شاهدت في الفناء الرئاسي الخدم والمراسم وطابور المنافقين والمتملقين. بدا ليّ كل شيء ميتا ويائسا.

سألت نفسي. هل سيستمر ذلك الوضع طويلاً؟ سمعت يوم 24 يناير أن هناك دعوات عبر الانترنت لتنظيم مظاهرة شبابية. ولكن نظراً لكوني انتمي للجيل القديم فلم أصدق ولم أثق بنجاح الانترنت في ذلك. وفجأة نجح الأمر! يا ألكسي! تم الأمر! وحدت الثورة بين الجميع؛ المسلمين والأقباط، الأغنياء والفقراء، المثقفين والأميين. كانت تلك هبة وطنية عامة فلتكن هناك صعوبات ومعاناة وضحايا! لكن النظام القديم الميت لن يعود!“

”صديقي العزيز المخلص الشريف الموهوب، بلا حدود؛ لكم وددت أن أصدقك! لكم وددت أن أؤمن بمستقبل ناصع لمصر التي اعشقها. لكوني قادم من بلد عانى الكثير من الثورات والثورات المضادة، عبر قرن من الزمان! وبكل حزن وأسف انظر الآن إلى ما آل إليه الوضع في بلدي. “. لم أقل تلك الكلمات له حتى لا أوّل مشاعره.

أصبحت كلمة التحرير أيقونة للثورة المصرية، ورمزاً للثبات والشجاعة والحرية. ثمانية عشر يوماً متواصلة، كان الميدان فيها يمجج بالحماس، والخطب الثورية، والنقاشات، والشعر، والأغاني، والاشتباكات مع الشرطة والبلطجية المستأجرين من قبلها، وحتى مع سائقي الجمال. كانت كلمة ”ارحل“ تخرج من حناجر الملايين، موجهة إلى الرئيس مبارك. اختفت الشرطة حينها. ووقفت الدبابات في محيط الميدان والشوارع الضيقة المحيطة. لم يتدخل الجيش في الأحداث. تنحى الرئيس مبارك. وماذا بعد؟ عاشت مصر بعدها أوقاتاً صعبة.

طرحت على نفسي سؤالاً قديماً: ”ماذا علينا، في روسيا، أن نفعل؟“ ودهمتني إجابة واحدة: ”المهم عدم التدخل في أي شؤون مصرية أو عربية!“

لم ننجح في تحقيق ذلك.

و تسعى روسيا في القرن الحادي والعشرين إلى العودة إلى الشرق الأوسط. وشاءت الأقدار أن يكون ذلك عبر البوابة السورية.

. . . دمشق. أبريل 2016م. أثناء حوار لي مع السفير الروسي الكسندر الكسندريفيتش كينشاك بمكتبه. وبين وقت وآخر نسمع صوت إطلاق نار من مدفعية ثقيلة. قال السفير وهو يشرح لي ما يدور هناك: ”يضربون أهدافاً في ضواحي دمشق، على بعد خمسة كيلومترات تقريباً، سبعة كيلومترات من هنا. حيث يسيطر المقاتلون، أو قوات داعش، أو جبهة النصرة، على الأحياء في تلك المناطق. ويحاصر الجيش هذه الأحياء بما تبقى فيها من سكان“.



- هل لي أن أصل إلى الجبهة؟

- لا. فأنا مسؤول عن أمنكم. ولا يمكنكم التنقل في المدينة إلا في سيارة السفارة فهي مدرعة وآمنة.

عند الحدود السورية اللبنانية استقبلتني عناصر من القوات الروسية الخاصة بصحبة سيارتين مدرعتين. وكانوا جميعاً يرتدون زياً أسود، ويحملون الأسلحة الآلية وأجهزة لاسلكي. أقلوني إلى فندق في وسط العاصمة دمشق، ثم ذهبت، حسب الاتفاق، في إحدى السيارتين إلى السفارة، والتي يحيط بها سياجان أمنيان: سوري خارجي، وروسي في الداخل. أمّا الممرات والمداخل فهي بين جدران عالية من الخرسانة المسلحة. وتم غلق الشارع أمام السفارة أمام حركة المرور. وتم استخدام السيارة المدرعة في تنقلاتي في المدينة، وأثناء لقاءاتي وزارتي للجامعة.

ما العمل. النظام هو النظام. الفضول يقتلني. استقللت تاكسيا، ووافق السائق في مقابل بعض المال أن يذهب بي إلى محطة الباصات، والتي يمكن منها السفر إلى مدينة الرقة عاصمة مقاتلي داعش. (أي أن الحافلة تمر عبر جبهة الحرب الأهلية). ورأيت هناك كافيترية مزدحمة بالناس، وحواري المدينة القديمة الصاخبة، ثم أقلني التاكسي إلى مواقع الجيش السوري، حيث كانوا يغلقون طريق المرور إلى مخيم اليرموك الفلسطيني سابقاً. والمخيم ليس خياماً، بل أحياء قديمة ضمن مدينة دمشق الكبرى. وبعد القتال الذي اندلع بين تنظيمين إسلاميين تمكنت داعش من السيطرة على جزء من المخيم، فيما احتلت جبهة النصرة جزءاً آخر. وهناك أحياء أصبحت خاوية تماماً من البشر، واستخدم المقاتلون الأنفاق بمدف التستر والاختباء.

أمسك الضابط الشاب بجواز سفري وتصفحته سريعاً، وبعد حديث طويل، ومحاولات مني لإقناعه، واتصالات هنا وهناك، وافق أخيراً على اصطحابي إلى نقطة مراقبة. "بشرط ألا تتحرك ولو خطوة دون موافقة مني". هناك قناصة يقفون على الجهة الأخرى. "أجبت قائلاً: "حاضر."

سرنا في خندق عميق وعبرنا إلى منزل غير مأهول، ومن داخله وبالاستعانة بالمنظار تمكنا من مراقبة المنطقة التي يسيطر عليها المقاتلون من خلف جدران البيت. رأيت مساحة فضاء مفتوحة، ومحاطة من جميع الجوانب بمنازل شبه مهدمة، وبقايا حطام سيارات متفجرة. "نحن نقوم بالمراقبة، وإذا لاحظنا أي حركة؛ نرسل الإحداثيات إلى قوات المدفعية فيستهدفون

الموقع المحدد. “ لم يسمحوا ليّ بالبقاء طويلا. وكرر ليّ الضابط أثناء وداعه لي عبارات الشكر والامتنان لروسيا، وردد كلمة بكلمة، تقريبا، ما قاله الرئيس السوري بشار الأسد في خطابه الأخير. من الواضح أن القائمين على التوجيه السياسي في الجيش السوري يقومون بعملهم على الوجه الأكمل.

كانت سوريا ساحة أظهرت من خلالها روسيا إمكاناتها وقدراتها العسكرية للمرة الأولى بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. وقد أثارت زيارتي لها الكثير من التساؤلات لدي، سواء حول هذا البلد أو حول منطقتي الشرق الأوسط والأدنى قاطبة. وسأحاول الإجابة على بعض منها في الجزء الثاني من الكتاب، والذي يحمل عنوان ”حدود البراجماتية“.

و اسمحو ليّ أن أحرق قليلاً التسلسل التاريخي للأحداث، وأتطرق إلى زيارتي إلى الإمارات العربية المتحدة في ديسمبر عام 2015م. فقد كان هذا البلد تحديداً مع عمّان يمثل هدفاً سامياً للثوار في ظفار، والذين كانوا يأملون في تأسيس ”مجتمع اشتراكي سعيد“ في هذه المنطقة.

. . . الجزيرة العربية. ديسمبر 2015م. ارتفع المصعد بلا ضجيج يذكر إلى الطابق الحادي والستين بعد المئة في أعلى ناطحة سحاب في العالم، وهي برج خليفة. ويحتوي المبنى على مئتي طابق، بإجمالي ارتفاعات تبلغ 828 مترا. ويمكنك الاستمتاع من أعلي البرج بالنظر إلى جمع كبير من ناطحات السحاب ”القصيرة“، والتي يبلغ ارتفاعها، في المتوسط من 60 إلى 70 طابقا. شبكات الطرق ذات المستويات المختلفة لتوزيع التدفقات المرورية على الطرق السريعة. وتنظر إلى الشرق فتري البحر، وإلى الغرب فتجد الصحراء. هناك كانت تقبع كهوف طينية فقيرة يقطنها الصيادون، وخيام للبدو، عندما قدمت أول مرة في عام 1969م، وكنت حينها أول سوفييتي، أو ربما أول روسي في التاريخ، يزور الإمارات العربية المتحدة بعد إعلان استقلالها مباشرة.

و يمكنك التنقل بين طوابق البرج، الذي ربما يعتبر أول مدينة عمودية في العالم، تستطيع استيعاب ما يزيد عن خمسة وثلاثين ألف إنسان. يحتوي البرج على شقق، وفنادق، ومكاتب، ومطاعم، ومحال تجارية، وجميع الخدمات المعيشية الضرورية. ويمكنك الهبوط إلى شرفة الفندق في الأسفل، والاستمتاع بغروب الشمس، والاستمتاع، في نفس الوقت، بتراقص النوافير أمام البرج على أنغام الموسيقى العربية، وموسيقى الجاز، على بحيرة صناعية وردية اللون. كما



يمكنك الاستمتاع بالتحول بين صفوف لا تنتهي من المحال التجارية بمختلف أحجامها. ويمكنك أيضا أن تجلس على مقهى وتطالع الصحف الروسية، وكذا الصحف المحلية، كبيرة الحجم، باللغتين العربية والإنجليزية. وفي الفندق يمكنك في المساء أن تشغل التلفزيون، وتختار واحدة من مئات القنوات. وتجند نفسك وقد غرقت في بحر من المعلومات الحقيقية (والكاذبة)، وطوفان من الإعلانات عن سيارات، ومجوهرات، وأحذية، وساعات، وعطور، ومعارض فنية، وحفلات موسيقية، ورحلات، وكل ما يمكن بيعه.

لا. لا يمكنني، وأنا في هذا العمر، أن أتصرف كشاب رومانسي في السابعة عشرة. لكن النفس أمارة بالسوء دوماً، وخاصة عندما تشاهد إعلاناً عن وجبة عشاء لفردين، تبلغ قيمتها 600 ألف دولار، في مدينتي على طريقي العالم. ادفع وستحصل على خدمة "شاملة كل شيء": الطيران لفردين على الدرجة الأولى، وربما بطائرة خاصة، تطير بك إلى الطرف الآخر من العالم، وغرفة في فندق، والمشروبات والطعام. وغير بعيد من هنا، وفي اليمن المجاور، يعتبر محظوظاً من يعيش في كوخ، ولديه بعض الحبوب في جوال مرفوع ومربوط بحبل على عارضة خشبية، حتى لا تلتهمه القوارض. الكثيرون هناك يعانون من نقص المياه والطعام، وكثيراً ما ينام الأطفال دون عشاء، وهم عراة، والذباب يغطي وجوههم.

وها هو خبر عن مباراة للهوكي بين فريق الروس المقيمين بالإمارات مع نظرائهم السويديين. لاحظت وجود أحذية التزلج في الصندوق الخلفي لسيارة أحد الموظفين الشباب العاملين في القنصلية العامة الروسية. وقد شرح لي لاحقاً أنه يمارس رياضة الهوكي طوال العام، ويلعب ضمن منتخب الجالية الروسية، وهناك عشرات الفرق المنافسة لهم. وهكذا وتحت درجة حرارة تتراوح بين 45 و48 درجة مئوية توفر قصور الجليد الإمكانية للتدريب وممارسة هذه الرياضة. ما العجب في ذلك؟ فالإمارات لديها محطات مترو فوق الأرض مكيفة الهواء، وكذا جبال ثلجية صناعية لممارسة التزلج على الجليد.

وفي عام 2014م زار الإمارات حوالي ستمئة ألف روسي، أنفقوا 1.2 مليار دولار، وانخفض الرقم قليلاً في العام التالي، 2015م. وأغلب هؤلاء من السياح ورجال الأعمال والوزراء. ليس هؤلاء فحسب فقد سمعت بنفسني في أحد الفنادق الفاخرة صوت رجال روس يصيحون ضحكاً بصوت عال وبلغة روسية، وعندما سألت أخبرني النادل أنهم من كبار رجال المافيا النافذين في روسيا. فهنا لا أحد يحاسبهم، وهم أيضا لا يمسون أحداً بسوء. ولكنهم، ببساطة، زبائن أسخياء جداً"

و في إمارة الشارقة قامت إحدى العائلات بتشييد وإنارة كنيسة القديس فيليب. هناك من يأتي هنا ليستشعر الهدوء وبرودة الجو في الكنيسة الأرثوذكسية الوحيدة في الجزيرة العربية، وهناك من يزورها ليعترف بذنوبه ويغتسل منها.

و قد انتهى لتوه في الإمارات معرض بيع المعدات العسكرية، ويحمل اسم ”دبي إير شو 2015“. وقد مثلت روسيا في المعرض خمس وعشرون شركة، قامت بعرض أكثر من مئتي نموذج لتقنيات عسكرية حديثة، بداية من المقاتلات متعددة المهام، حتى أنظمة المراقبة والاتصال. ولم يقتصر نشاط المعرض على البيع فحسب، بل قامت شركة ”روستيخ“ بتأسيس شركة بالتعاون مع الشركة القابضة الإماراتية ”نوازن“، وذلك لإنتاج الذخيرة بما فيها للدبابات القتالية بي إم بي 3.

و قد شاركت في الإمارات في المؤتمر الدولي للأمن في منطقة الخليج العربي، والذي قام بتنظيمه مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. وقد شارك في المؤتمر أكثر من 300 ضيفاً من مختلف الجنسيات. واتسمت مشاركاتهم بالجدية. وتناولت المداخلات أكثر القضايا الملحة سواء الاجتماعية أو الأمنية أو الاقتصادية أو الدينية. وقد أهداني مدير المركز السيد جمال سند السويدي كتابه، والذي يحمل عنوان ”من القبيلة وحتى الفيس بوك: وسائل التواصل الاجتماعي ودورها في التحولات المستقبلية“.

وتتميز الإمارات، وجيرانها قطر والكويت، بظاهرة فريدة، وهي قلة عدد السكان الأصليين، والذين انحلت عليهم ثروات نفطية ضخمة. وقد استطاع القادة الذين توارثوا تلك البلاد من الاستفادة بشكل عاقل من هذه الثروات. واجتذبوا في سبيل ذلك أفضل الأيدي العاملة الأجنبية، وأقلها كلفة. وتبلغ نسبتهم في الإمارات أكثر بعشر أضعاف من عدد المواطنين الإماراتيين المحليين.

و لكن ليست تلك هي القضية. فالمهم هنا هو معرفة ما تحتاجه روسيا من هناك. والإجابة في منتهى البساطة. نحتاج إلى تبادل تجاري، وتصدير لأسلحتنا، ومشاريع اقتصادية مشتركة، والسياحة، وجذب للاستثمارات من الإمارات إلى السوق الروسية. لا مكان للأيدولوجيا هنا. بالتأكيد تهتم روسيا باستقرار منطقة الخليج، على الرغم من الحاجة إلى تناول من نوع خاص للرؤية الروسية لمعايير تحقيق هذا الاستقرار.



و في أثناء عملي على إنجاز الجزء الثاني من هذا الكتاب، أدركت أن كثيراً من أسرار وآليات اتخاذ القرارات في فترة ما بعد جورباتشوف تبقى عسيرة على الفهم. وأصبح العثور عليها أكثر صعوبة مما قبل، حين كان رجال الدول السوفيت يسمحون لأنفسهم بالحديث بصراحة أكثر. أمّا الدبلوماسيون الحاليون، وكذا رجال المخابرات، فإنهم يتحفظون كثيراً في الحديث حتى تحت أسماء مستعارة.

ولذا لا يمكنني إلا أذكر بامتنان الحوارات التي اتسمت بثناء المضمون، وساعدتني في فهم الكثير من الأمور. وجرى أحدها في مبنى الغرف التجارية والصناعية، وآخر في مكتب بمركز التجارة الدولية مع السيد يفجيني مكسيموفيتش برماكوف. وهو زميل سابق أثناء عملي بصحيفة البرافدا، وأكاديمي، وعالم سياسة، واقتصادي، وكاتب اجتماعي، عمل رئيساً لجهاز المخابرات، ثم وزيراً للخارجية، ثم رئيساً للحكومة الروسية. وبعد أن قام بوريس يلتسين، بتحريض من أفراد عائلته الأثرياء، بإقالته، عمل برماكوف لسنوات طويلة رئيساً لاتحاد الغرف التجارية والصناعية. وقد حضرت الاحتفال ببلوغه الثمانين ضمن "دائرة ضيقة" من الضيوف بلغت المئتين، وكان الرئيس بوتين حاضراً، ووصف برماكوف بأنه "مواطن عظيم". ثم نطق بالعبارات التالية تقريباً: "في السنوات التي كانت فيها روسيا على حافة الانهيار التام، ظهر رجال من نوعية برماكوف، أنقذوها في اللحظة الأخيرة." ثم قاما سوياً بغناء أغنية عن ليننجراد؛ "المدينة التي تعلو النهر المتدفق."

كما التقيت، في حوارات عديدة، مع إيغور ايفانوف وزير الخارجية الأسبق، وسكرتير مجلس الأمن الروسي. وجرت لقاءاتنا في شارع ماليا ياكيمانكا، في مكتبه بمركز المجلس الروسي للشؤون الدولية والذي قام بتأسيسه.

وقد ساعدني السيد يو. شافرانك، وزير الطاقة والوقود، والرئيس الحالي لمجلس اتحاد منتجي النفط والغاز في روسيا كثيراً في فهم دور الطاقة في السياسة الخارجية الروسية.

و رغم تقاعده ومرضه الشديد، إلا أن السيد أ. كوليك، الرئيس الأسبق لفرع الاستخبارات الروسية في الشرق الأوسط، قد احتفظ بذاكرته القوية اليقظة، وأرائه، وحتى اتصالاته وعلاقاته. واتسم حديثنا بالصراحة. ويعد من القليلين الذين ظلوا يقطنون في شقة من عصر خروشوف، ولم ينتقل إلى مكان أرحب وأكثر رقياً ويملك بمكانته كلاء في الإدارة الرئيسة لجهاز كي جي بي.

و لم يعترض صديقي القديم الدمث، رافايل عين الدين، على إجراء حوار معه، ويشغل منصب رئيس الإدارة الروحية لمسلمي الجزء الأوروبي من روسيا، ورئيس مجلس الإفتاء الروسي. وقد استقبلني بمكتبه المقابل للمسجد الجامع بمدينة موسكو، والذي يعد تحفة معمارية. وبالقرب منه تقع الكنائس الأرثوذكسية والمجمع الكنسي الأرمني والملعب الأولمبي، ما يعتبر رمزاً دالاً على آمالنا وأحلامنا جميعاً كمواطنين روس في التعاون والتلاحم. ربما لا ينقص المكان فقط سوى معبد يهودي وآخر بوذي.

و قد انتهيت من الفصول التي تتناول العلاقات الروسية المصرية قبل عام 2011م، واستفدت فيها من نتائج رسالة دكتوراة، قام بها نائب وزير الخارجية وسفيرنا الأسبق في القاهرة ميخائيل بوجدانوف، وكان للمؤلف شرف الإشراف على هذه الرسالة.

كما شاركني، فعلياً، في طرح الكثير من الآراء، السيد ب. ستيجني، السفير الأسبق في الكويت وتركيا وإسرائيل، وهو عالم ومؤرخ وعمل "كديبلوماسي" مستعار في الجزء الأول من الكتاب، حيث تنسب معظم المقالات إليه تحديداً.

و قد وافق زميلي السابق في صحيفة "البرافدا"، ثم في مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، والعقيد بالإدارة الرئيسة لجهاز كي جي بي، ي. روساكوف، على تحرير الجزء الأول من الكتاب. ليس هذا فحسب بل منحنى لقاءً صحفياً بشخصيته الحقيقية، وساعدني في إلقاء نظرة على الأحداث من وجهه النظر الأمريكية.

كما شارك زملائي المستشرقون، أ. كوروتاييف، ول. ايسايف، وأ. تكاتشينكو، ون. فيلين، ول. رافاندي فادان، وأ. خودونوف، والقنصل العام الأسبق في اسطنبول، ل. مانجوسين، في مناقشة مقتطفات بعينها في الكتاب، وأمدوا المؤلف بالحقائق والأحداث. وبذل السيد أوليج تيتيرين، نائب المؤلف في رئاسة مجلة "آسيا وأفريقيا اليوم"، الكثير من الوقت والجهد في تحرير الجزء الثاني من الكتاب.

و قد ساهم مساعد المؤلف، س. تشوكانوف، بجهد كبير في جمع المادة الضخمة من الحقائق والوقائع الضرورية لوضع الكتاب. كما تعهد بالمراسلات باللغات الروسية والإنجليزية والعربية. لا أجد ما يكفي من عبارات الشكر والامتنان، حتى أوفيه حقه وجهده الدؤوب، والذي يمنعه من مواصلته إلا موته إثر مرض خطير.



قام بترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية س. كوستيليانيتس، والذي قام أثناء عمله بتدقيق الصياغة والحقائق الواردة بالنص الروسي. أما الترجمة إلى العربية فقام بها محمد نصر الجبالي أستاذ اللغة الروسية وآدابها بجامعة عين شمس. وبالطبع لا يمكن تجاهل العمل الدءوب والمتفاني الذي تقوم به مساعدتي س. بولينينا، وهي الوحيدة التي استطاعت فك طلاسم الخط مع الإملاء السريع. وبدونها لم يكن هذا الكتاب ليظهر للنور.

و هكذا يمكن القول بأن هذا الكتاب هو نتاج لجهد جماعي. وإذا كان لكل مشارك سواء من الضيوف أو الزملاء أو معاوني الحق في اقتسام المزايا، فإن كل النواقص والهناات لا يتحملها سوى المؤلف وحده.